Assuthur
https://ejournal.iaingorontalo.ac.id/index.php/assuthur
E ISSN : 2963-0657

Assuthur: Jurnal Pendidikan Bahasa Arab
Vol. 2, No. 2 Desember 2023
https://doi.org/10.58194/as.v2i2.872

قراءة في إشكالية العلاقة بين الأدب بالتاريخ

Abdellah Elhatouk1, Iskandi2

1,2 University of Sidi Mohammed bin Abdullah Fes-Morocco, IAIN Syaikh Abdurrahman Siddik Bangka Belitung-Indonesia
abdellah8787@gamil.com, iskandi7man@yahoo.co.id

Article information	Received: 01/08/2023	Accepted: 10/12/2023	Published :10/12/2023

مستخلص: تهدف هذه الدراسة التي نحن بصدد القيام، إلى تحديد طبيعة العلاقة بين علمين أساسيين ومهمين فرضا وجودهما المعرفي والعلمي في الساحة البحثية منذ أن ظهور فعل الكتابة الإنسانية. وهما التاريخ والأدب. فأي علاقة تربط هذين المفهومين؟ وهل يمكن الفصل بينهما؟ أم أنهما متلازمان لا يمكن الفصل بينهما؟. أم أن الفصل بينهما نظري فقط؟. تلكم هي الأسئلة التي سنحاول الإجابة عنها من خلال هذا المقال.

الكلمات المفاتيح: التاريخ، الأدب، العلاقة، الاتصال، الانفصال.

Abstrak: Penelitian ini bertujuan untuk menentukan sifat hubungan antara dua ilmu dasar dan penting yang telah memaksakan kehadiran kognitif dan ilmiah mereka di arena penelitian sejak munculnya tindakan tulisan manusia. Keduanya adalah sejarah dan sastra. Apa hubungan antara kedua konsep ini? Bisakah keduanya dipisahkan? Atau apakah keduanya tidak dapat dipisahkan satu sama lain? Atau apakah pemisahan di antara keduanya hanya teoretis saja? Pertanyaan tersebut yang kami coba jawab melalui artikel ini.
Kata Kunci: Sejarah, Sastra, Hubungan, Komunikasi, Pemisahan.

مقدمة

إن إشكالية العلاقة بين الأدب والتاريخ إشكالية قديمة قدم فعل الكتابة الإنسانية، ولها جذور موغلة في التاريخ، حيث إن اغلب المهتمين بتاريخ الإنسان يربطون علاقة التاريخ بالأدب بالبدايات الأولى لظهور الإنسان على وجه الأرض، هذا الكائن الحاكي بطبعه نظرا لتملكه لصفتين أساسيتين تمكنانه من ذلك ألا وهما" اللغة والخيال/التخييل. وهما الصفتان اللتان يفتقدها غيره من الكائنات.

منهج البحث

اعتمدنا في بحثنا هذا على المنهج الوصفي التحليلي يتضح ذلك من خلال المناقشات التطبيقية التي قمنا بها و نتائج الدراسة الوصفية التحليلية و ما سجلناه من ملاحظات لدراسة تحليلية لتحديد طبيعة العلاقة التي تربط بين مبحثي التاريخ والأدب.

نتائج البحث ومناقشتها

١. المحور الأول: الحكي بين التاريخ والأدب:

من منطلق التقديم الآنف الذكر أضحى الحكي ذا صبغة تاريخية، وذلك أن التاريخ عبارة عن حكاية تروى بشكل شفهي أو كتابي. وخلال عملية الحكي يتدخل عنصر الخيال فيعمل على توسيع عملية الحكي ويعيد سرد التاريخ عبر إضافة لمسات تخييلية إلى غاية اكتمال صورة الحكاية، فيتحول بذلك التاريخ إلى ممارسة ذهنية إبداعية. ليصبح للمسألة التاريخية ثلاثة عناصر رئيسة تشكل فيما بينها بنية مترابطة ومنسجمة غاية الانسجام، وتتمثل هذه العناصر فيما يلي: هي الأحداث/الوقائع التاريخية كما وقعت وحدثت فعليا، ثم عملية إعادة الحكي المرتبطة بهذه الوقائع بعد فترة زمنية وتكزن إما على شكل مشافهة أو كتابة، ثم نجد العنصر الأخير ويتمثل في عنصر التخييل وهذا الأخير يرتبط بمزاج الحاكي والتقنيات التي يوظفها في الحكي.

وهذه العناصر الثلاثة المذكورة آنفا هي الأسس التي يتكون منها البناء الروائي على اعتبار أن هذا البناء/المعمار، لا يتم تشكيله بشكل عشوائي أو أنه ينطلق من فراغ، بل على العكس من ذلك تماما، حيث يقوم بنسج الكثير من العناصر، فما كان قد وقع فعلا من شخصيات ووقائع وظواهر، ثم يأتي بعد ذلك باني الفعل الروائي فيشيد على ما كان قد وقع فعلا، تأثيثات فنية تخييلية لإغراء القارئ بالتفاعل مع نصه والإعجاب به. ومنه نستنتج أن مهمة الرواية التي تضطلع عليها لا تتوقف فقط عند فعل السرد والحكي للأحداث بل تتنبأ وتتوقع ما سيحدث في تقنية جوهرها الاستشراف

الذي يكون في الخيال هو مركز العملية الإبداعية الأساسي. ويكون الراوي منهمكا في إيجاد وخلق علم جديد بمكوناته السردية المتنوعة من شخصيات وأمكنة وأزمنة وقوى فاعلة متنوعة. ومن ثم يصبح التاريخ حافزا لكتابة روائية تنشد أفقا إبداعيا غير محدود.

إن مهمة البحث في التاريخ وحده ليست بالأمر السهل والهين إذ يتطلب معرفة ودراية بمعارف عديدة ينبغي معها أخذ الحيطة والحذر في التأكد والتثبت من الوقائع التاريخية بالتمحيص والمقارنة وغيرها من الشروط الواجب توفرها في الباحث في التاريخ إذا ما أراد الخروج بنتائج تشفي غليل رغبته البحثية.

إن اقتران الأدبي بالتاريخي مسألة غاية في التعقيد. إذ بالإضافة إلى طبيعة الخطاب الأدبي المتميز والمتسم بلغته الإيحائية يتسلل التاريخ من نافذة الأدب بشكل صريح تارة وضمني تارة أخرى، مما يجعل المهتم والباحث مشتت الاهتمام بين الجوانب الداخلية والخارجية لهذا النص أو ذاك، فتتشابك عليه الحقائق فيقبض على بعضها ويفلت البعض الآخر.

وهذا ما دفعنا للحديث على أن السياق التاريخي الذي أفرز الرواية في المغرب يحيل على أن الروائيين المغاربة قد عملوا على استعادة التاريخ بطريقة جديدة وحاولوا بعثه وإحياءه بنفس جديد وبحبكة أكثر ثراء وتشويقا وهو ما نلمسه من خلال قراءة مجموعة من الأعمال الروائية لكتاب مغاربة مرموقين حيث يلاحظ القارئ أن تلك الأعمال يتداخل فيها التاريخي بالأدبي في قالب فني بديع نذكر على سبيل المثال لا الحصر كتابات مبارك الربيع من خلال روايته "الريح الشتوية"، ورواية أوراق لصاحبها المؤرخ والمفكر الكبير عبدالله العروي بالإضافة إلى كتابات حسن أوريد من خلال روايته "الموريكسي" على سبيل المثال. وغيرها من الكتابات التي تبين بجلاء تداخل المكونين التاريخي والأدبي.

غير أن استكناه وكشف هذا التداخل من خلال هذه المتون الروائية السالفة الذكر تتطلب قارئا يمتلك من الآليات الواعية التي تمكن من تجاوز ما تثيره الرواية التاريخية من شكوك عند القراء

والدارسين، والنقاد على وجه الخصوص وبسبب العديد الأسئلة مرافقة والتي تفرض نفسها على القارئ من قبيل:

. ما المقصود بالرواية؟ والرواية التاريخية؟.

. وما طبيعة الأسلوب الذي ينبغي على المؤلف اتباعه في إطار كتابة وتأليف رواية تتخذ من التاريخ مجالا وفضاء تكون محتضنة فيه وتحل فيه؟ وما هي المواقف التي يتخذها القارئ إزاء الحوادث التاريخية المندرجة في سياق المحكي المتخيل؟

. ما مدى استناد المؤلف/الروائي على الوثائق التي تبث وتؤكد صحة ما يروى، أم عليه أن يتخطى ذلك، ويعد المحكي المتخيل شيئا لا علاقة له بالتاريخ؟

تلكم هي الأسئلة التي سنحاول الإجابة عنها من خلال هذا المقال، والتي نطمح الإحاطة والإلمام بها قدر المستطاع وكذا مناقشتها.

٢. المحور الثاني: طبيعة الخيال الأدبي ووظيفة الرواية:

وجد الكتاب بصفة عامة والعرب خاصة في الرواية ملجأ يطرحون فيه همومهم وهموم أمتهم . بعدما كان الشعر ولقرون عديدة ديوان العرب، وملاذ المبدعين ووسيلتهم الأولى والمثلى في التعبير عن هموم الذات والجماعة على حد سواء. وبقيت أسماء الكثير من الشعراء تشغل عقول الناس مجلجلا صدى شعرهم في "أفق الثقافة العربية، إلى غاية النصف الثاني من القرن الماضي حيث انطلق موسم الهجرة إلى الرواية"[١] حيث بدأ مد الشعر مع ظهورها ينحسر تدريجيا فاسحا للرواية المجال لحمل هموم الواقع العربي. " فمنذ عهد غير بعيد، في أقل من قرن اكتسحت الرواية الساحة الأدبية بالغم من أنها "كانت تشق طريقها بصعوبة واضحة[٢]. وقد استغل الكتاب العرب الرواية في تشخيص أمراض الواقع الذي يعيشونه والمتسم بالقتامة الشديدة، وقد توسلوا بها كذلك كي

[١] طه وادي: الرواية السياسية، سلسلة أدبيات، الشركة المصرية العالمية للنشر .لونجمان، ط١، ٢٠٠٣، ص٢٦٤.

[٢] عبد الله إبراهيم: السردية الحديثة تفكيك الخطاب الاستعماري وإعادة تفسير النشأة، المركز الثقافي العربي، ط١، ٢٠٠٣، ص٣١٤ وما بعدها.

يعالجوه من أجل بناء واقع يوافق تطلعاتهم وطموحاتهم، وساعدتهم الكتابة الروائية كذلك في استشراف مستقبل زاهر يحلمون به. فاختلفت طرق تعبيرهم واتسع مجال التجريب داخل هذا الهرم الفني الذي هدم الحدود بين اللغات واللهجات والأجناس الأدبية وشتى أشكال التعبير فاستوعب اليومي من حياة الناس، واستوعب الأساطير والخرافات كما استوعب الحقائق العلمية وتعايش التاريخ والتراث مع الواقع المعيش ومع المستقبل المأمول. والرواية كما عبر عنها الدكتور الراحل جابر عصفور " إنها الجنس القادر على التقاط الأنغام المتباعدة والمتنافرة والمتغايرة والخواص لإيقاع عصرنا"[٣]. فجابر عصفور من خلال كلامه هذا يعطي لجنس الرواية وظيفة متفردة لا يقوم بها غيره من الأجناس الأدبية الأخرى، والمتمثلة في تصوير الواقع وتشخيص حيثياته المتنوعة.

وقد اكتسب الخيال الأدبي مساحة كبيرة من اهتمام الأدباء والنقاد قديما وحديثا واختلفت النظرة إليه مع تطور العصور الأدبية منذ أريسطو إلى يومنا هذا. ذلك أن الإبداع الإنساني في نظر القدماء والكلاسيكيين يعتمد على العقل أكثر من اعتماده على الخيال والتخييل.

لأن أدبهم كان " أدب تقليد واحتذاء لا أدب وحي وإلهام أدب صورة وقالب لا أدب جوهر ولب. أدب لياقة وكياسة وبراعة لا أدب عبقرية وروح"[٤]. كما أن دور الخيال عندهم كان مقزما ومهمشا عند النقاد الكلاسيكيين فهو يمثل عندهم" الجانب الخادع في النفس الذي يقود إلى الخطأ والزلل"[٥].

ومن الذين يوافقون الرأي السالف الذكر نجد فيلسوف العقلانية الفرنسي "رينيه ديكارت" حيث ذهب إلى القول بأن " المخيلة تشوش الفكر، وتحول دون أن يباشر العقل عمله بالطريقة الصحيحة"[٦]. وعلى الطرح نفسه كذلك ذهب العديد من رواد النهضة العربية الحديثة أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، ونجد من بينهم محمد عبده الذي كان يتبنى الإصلاح الديني ومن هذا المنطلق كان "يحذر بقوة من الأثر الفادح لكتب الأكاذيب الصرفة التي تتحرك في أفق مشبع

---

[٣] جابر عصفور. زمن الرواية، الهيئة المصرية، القاهرة ١٩٩٩. ص٥٣.

[٤] أحمد أمين: النقد الأدبي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٤، ١٩٦٧. ص٣٢٠.

[٥] محمد غنيمي هلال: الرومانتيكية، دار العودة بيروت، ١٩٨٦. ص١٥.

[٦] عبدالله إبراهيم: السردية العربية الحديثة. مرجع سابق. ص٢٩٩.

بالتخيلات، ويثني على منع نشر كتب الفروسية العربية، وفي مقدمتها السير الشعبية التي صورت تخيليا بطولات الفرسان كعنترة بن شداد، وأبي زيد الهلالي وسيف بن ذي يزن، والأميرة ذات الهمة وغيرهم"[٧]. فمحمد عبده من خلال كلامه هذا يرى أن الخيالات التي رويت حول هذه الشخصيات التاريخية إنما هي ضرب من التلبيس على عقول الناس. فهو بذلك يرفض إذا ربط التخييل الروائي بالتاريخ الإنساني.

وإذا ما نظرنا في الجهة المقابلة من هذا الرأي سنجد أن هذه النظرة للخيال قد تغيرت تماما عند النقاد والباحثين المحدثين/الحداثيين. وهو ما نجده عند تيار الرومانسيين حيث ارتفعت أصوات أدبية تدافع عن الخيال وتبين أهميته في عملية الإبداع وتصوير الواقع، كما دعا هذا التيار إلى التحرر من القواعد التقليدية الكلاسيكية. ودعت الحركة الرومانسية لإطلاق

العنان للخيال عبر اللجوء للشعر الغنائي الذي يخاطب الوجدان، كما دعت الحركة إلى البحث عن الحقيقة من داخل النفس الإنسانية بعيدا عن سلطة العقل التي كان يمجدها أنصار المدرسة الكلاسيكية. وهذا ألفريد دي موسيه يعارض أفكار بوالو بقوله:" أول مسألة لي هي ألا ألقي بالا إلى العقل"، ويوجه النصح لصديقه بقوله أن" أقرع باب القلب ففيه وحده العبقرية، وفيه الرحمة والعذاب والحب، وفيه صخرة صحراء الحياة حيث تنبجس أمواج الألحان يوما ما إذا مستها عصى موسى"[٨].

ولكن رغم هذه الثورة التي أحدثتها الحركة الرومانسية على الطرح الكلاسيكي حيث حاولت إعادة الاعتبار للخيال، فإن دور هذا الأخير سيعرف انحسارا من جديد مع ظهور نظرية الانعكاس. والتي كانت ترى في الأدب مجرد مرآة للواقع ووصفا وتعبيرا دقيقا له بطريقة ضمنية أو بطريقة صريحة. إلا أن الاهتمام بعنصر الخيال في الأدب كعلامة تميز الفنون الأدبية تواصل. دفع مجموعة من النقاد إلى النضال رغبة منهم في استعادة الأدب أدبيته التي يعتبر عنصر الخيال جوهرها الأساسي.

---

[٧] المرجع نفسه. ص٢٩٩.

[٨] محمد غنيمي هلال: الرومانتيكية، المرجع نفسه. ص١٦.

ذلك أنهم انطلقوا من فكرة مفادها أن " كل فلذة من الأدب تكتسب أدبيتها بقدر ما تحتل من رقعة الخيال"[٩].

والرواية باعتبارها فن أدبي يقترن أساسا بالتخييل، سعت إلى نفي تلك العلاقة الانعكاسية لها مع الواقع. لكن " فكرة الانعكاس هي شكل من أشكال إهانة الإبداع بجعله لصيق المرحلة، في وضع المنتظر الذي لا مسؤولية له سوى ترقب المناسبات للكتابة عنها"[١٠].

ومهمة الروائي ليست نقل الواقع كما هو، بقدر ما هي تجاوز له وإعادة صياغة معطياته بطريقة فنية يمتزج فيها الواقع بالخيال. بحيث "أن السرد متى استعان بالصورة دخل العالم التخيلي، إلى حقله الخاص به، وبقيت " الأحداث الواقعية" قاعدة قابة للتحريف عند الضرورة، ولأن الضرورة الفنية تتطلب تجاوز الظرف، فإن التحريف نفسه سيغدو قاعدة. أما الواقع فلا يمثل إلا نسبة من العمل الأدبي، وليس العكس. وهذا العكس معناه تخلي الكاتب عن شخصيته والغوص في قضايا لا تعنيه ككاتب، قضايا تعني الإمام والسياسي والجمعيات الخيرية مثلا. لكنها ليست أدبا، أو أنها أدب قابل للتقويض في أية لحظة".

٣. المحور الثالث : علاقة الرواية والتاريخ:

يكاد النقاد يجمعون على أن العلاقة بين التاريخ والرواية علاقة إشكالية حيث تتداخل وتتشاكل بين العلمين الكثير من التقاطعات، خصوصا وأن كلاهما يعتمد على مجموعة المكونات والعناصر المشتركة فيما بينهما والمتمثلة في: عنصر الإنسان والزمان والمكان والطابع القصصي السردي والحكائي، وتشكل هذه هذه العناصر أس وجوهر الرواية والتاريخ والتي يمكننا اعتبارها أي تلك العناصر المادة الأساسية التي يتمحور حولها صلب اهتمام علمي الرواية والتاريخ بحيث أنه "فما من رواية إلا وتقوم كالتاريخ على بنية زمنية تاريخية تتشخص فيث فضاء مكاني وتمتد من الماضي إلى

[٩] صلاح فضل: أشكال التخييل، من فتات الأدب والنقد، الشركة المصرية للنشر .لونجمان، ط١ ١٩٩٦. التقديم.

[١٠] السعيد بوطاجين: السرد ووهم المرجع. مقاربات في النص السردي الجزائري الحديث. منشورات الاختلاف، ط١ ٢٠٠٥.ص٨.

لحظة الكتابة وقد تتجاوزها إلى المستقبل، وكذلك التاريخ. ولا تاريخ دون قص كما قال كروتشة، فهو نوع من الرواية لأحداث وقعت في الماضي، ونمط من الحكاية عن أشخاص وظواهر وأحداث اجتماعية واقتصادية وسياسي، ولعل هذا ما دفع بمحمود أمين العالم إلى القول بأن الرواية هي تاريخ متخيل داخل التاريخ الموضوعي"[١١]. نفهم من كلام الباحث أن العلاقة بين الرواية والتاريخ هي علاقة أمومة ورضاعة تبادلية بحيث لا يمكن لأحدهما الاستغناء على الآخر.

ويعتبر العديد من النقاد والدارسين أن الرواية مصدر تاريخي أساسي، ذلك أنها "تتناول ظواهر اجتماعية وكل ظاهرة اجتماعية هي ظاهرة تاريخية كما يقول باختين، نستطيع القول بإمكانية اعتبار الرواية مصدرا غير تقليدي للتاريخ، لأنها الأقدر على التغلغل في طيات المجتمع وخبايا النفوس والأقدر أيضا على إنطاق المسكوت عنه في الخطاب الثقافي والسياسي والاجتماعي العام "[١٢]. وبمعنى آخر أن الرواية هي تلك الأداة والوسيلة التي يلجأ إليها الإنسان بغية التعبير عن ما يخالج فكره حول واقعه بأبعاده المختلفة.

وكثيرون ذهبوا إلى أن الرواية هي كتابة التاريخ غير الرسمي أو التاريخ المنسي، فهي التي تتسلل وتتسرب في حيثيات وتفاصيل لا ينتبه لها التاريخ المنشغل سلفا بتدوين الأحداث الكبيرة، وتاريخ الأسماء الكبيرة وينسى تداعيات تلك الأحداث على الأرض والبشر والضحايا، الذين يعيشون في الظل بعيدا عن شموس القيادة، إن الرواية بذلك هي صوت الإنسان المهمش الذي لا يولي له المؤرخون اهتماما يذكر.

ولهذا اعتبر المهتمون بدراسة العلاقة بين الرواية والتاريخ، كل من الروائي الفرنسي بلزاك مؤرخا للعصر ، وإيميل زولا مؤرخا للحياة الاجتماعية في القرن التاسع عشر، ونجيب محفوظ مؤرخا للقاهرة في الأربعينيات، وكذلك عبد الرحمان منيف في "مدن الملح"، ثم في أرض السواد يؤرخ للجزيرة العربية في العراق. وحسن أوريد في رواية الموريسكي يؤرخ للفترة الاسلامية في الأندلس وأمين معلوف

[11] الأحمد، زياد، العلاقة بين الرواية والتاريخ، مجلة الجديد يناير ٢٠٢٠ العدد ٦٠.ص١٠.

[١٢] المرجع نفسه. ص.١١

في رواية سمرقند يؤرخ للحركة الباطنية او ما يسمى بطائفة الحشاشين وزعيمها الحسن الصباح خلال فترة حكم السلاجقة للعالم الإسلامي. والأمثلة على ذلك كثيرة والتي تبين وتوضح بجلاء على أن الرواية مصدر من مصادر التاريخ المهمة. وبالمقابل يمكن للتاريخ كذلك أن يكون مرجعا للرواية ومنهلا تستقي منه موضوعاتها، ومكوناتها كما تؤكد سليمة العذراوي على أن هناك ارتباطا فطريا بين التاريخ والفن الروائي إذ أن كليهما يتضمن سرد الأحداث بشكل قصصي، ولوجود هذه العلاقة بين الفن والتاريخ اتجه الكتاب إلى قراءة هذا المصدر الثري، وهضم صوره وصياغة موضوعاته صياغة حية نابضة لتغدو وسيلة للتعبير من خلالها عن أنفسهم باعتبار أنها ذوات تحس وقلوب تنبض.

الخلاصة

نستخلص انطلاقا مما سبق أن علاقة الأدب بالتاريخ، هي علاقة تواشج وتكامل وترابط شديد لا يمكن الفصل بينهما إلا على المستوى النظري. فالتاريخ جزء من الأدب وخصوصا جنس الرواية، إذ لا نكاد نقرأ رواية إلا ووجدنا مؤلفها يوظف معطيات تاريخية يعزز بها دفقته السردية والشعورية لإثارة انتباه قارئ العمل الأدبي. وسنحاول إن شاء الله من خلال مقالات أخرى استجلاء البعد التاريخي في العمل الأدبي وخصوصا الرواية سواء كانت عربية أو عالمية. إضافة إلى ما قلناه عن تجلي ما هو تاريخي في ما هو أدبي فالتاريخ كذلك لا ينفك يستخدم لغة الأدب في سرد المعطيات التاريخية. وهو ما نلحظه من خلال قراءتنا لعديد الأعمال التاريخية والتي يوظف فيها صاحبها لغة الأدب" سردا وخيالا" في تقديمه الأحداث التاريخية للقارئ، ولعل مؤلفات ابن كثير والطبري وابن خلدون وغيرها كثير لخير دليل على مدى ارتباط التاريخي بالأدبي.

المراجع

طه وادي: الرواية السياسية، سلسلة أدبيات، الشركة المصرية العالمية للنشر ـ لونجمان، ط١، ٢٠٠٣.

عبد الله إبراهيم: السردية الحديثة تفكيك الخطاب الاستعماري وإعادة تفسير النشأة، المركز الثقافي العربي، ط١، ٢٠٠٣.

جابر عصفور. زمن الرواية، الهيئة المصرية، القاهرة ١٩٩٩.

أحمد أمين: النقد الأدبي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٤، ١٩٦٧.

محمد غنيمي هلال: الرومانتيكية، دار العودة بيروت، ١٩٨٦.

صلاح فضل: أشكال التخييل، من فتات الأدب والنقد، الشركة المصرية للنشر ـ لونجمان، ط١ ١٩٩٦. التقديم.

السعيد بوطاجين: السرد ووهم المرجع. مقاربات في النص السردي الجزائري الحديث. منشورات الاختلاف، ط١ ٢٠٠٥.

الأحمد، زياد، العلاقة بين الرواية والتاريخ، مجلة الجديد يناير ٢٠٢٠ العدد ١٠